...ات»
...ن تاريخ وناس وذكريات!

«وحش الحرب» (زيت على كانفاس ــ 208 × 370 سنتم ــ 1977 ــ مجموعة سارادار)

مؤثرة من تاريخ بيروتنا منذ 40 عاماً. بل أكثر، نفهم ناسها: هنا «بائع البطيخ» يقرأ جريدته على الكورنيش (من مجموعة الفضل شلق)، وهناك «القهوة» وناسها (من مجموعة غسان الخطيب)، وذاك أبو الجماجم - «القبضاي» (من مجموعة العائلة) وعلى بُعد خطوتين منه «غيفارا» أو المثقف اليساري (من مجموعة العائلة أيضاً) وغيرهم. لا يغيب شيء وأحد عن أعين عبد الحميد بعلبكي! في الشارع من النبعة إلى الشياح إلى الحمرا، أو حتى داخل البيوت... لوحات شاهدة على المجتمع من الداخل، من القلب. هدية بصرية مدهشة ربما لم يعلم بعلبكي أنه سيتركها لنا موثّقةً العصر، متيحة فرصة التأريخ الدلالي والبرهانيّ لمعالم من السبعينات والثمانينات معظمها اندثر. والأهم أنها بريشة أقرب إلى الواقعية رسماً ولوناً، وبعضها يميل إلى الثنائية البُعدية، أو حتى إلى الترميز (من دون التعريج إلى التجريد)، متيحة الفرصة لخيال الرائي بانتقاء البُعد الثالث الذي يريد. نغوص أكثر في لعبة الزمن، فيفاجئنا السواد، نحذر، نجمد مكاننا ويتسارع النبض. «مجزرة دير ياسين!» يقول بركات ويكمل: «هذه اللوحة تخليد للذكرى. كما تعلمين، كانت هناك مجموعة من اليسار العربي لها موقف في النضال. بالتالي قضية فلسطين لم تكن يوماً قضية الفلسطينيين، وانما قضية الكل. وبعلبكي منهم» يشهد بركات، واللوحة أمامه تكمل الحكاية شاهدة لتاريخ أمة.

تسحبنا اللوحات بشكل مغناطيسي في طرقات الزمن وندخل تدريجاً في عالم توثيق الحروب، أهلية كانت أم مع العدو. وإذ بالأحمر يطلّ بقوة كشعلة متقدة! هي «الحرب» (من مجموعة «سارادار») الأيقونة الأكثر شهرة للحرب اللبنانية. تقف هنا على الجدار الوسطي وحدها، مؤكدة أن لا صوت يعلو فوق صوت الحرب. ثم نمشي إلى ما وراء الجدار لنطوي صفحة الحروب. وإذ بـ «الحطاب» (من مجموعة رمزي دلول) جالسٌ في انتظارنا. «سقط جدار برلين عام 1989 وسقط معه حلمه أو العالم الاشتراكي. فرسم عبد الحميد بعلبكي هذه المجموعة من الأشجار الهرمة الميتة، ولوحة «الحطاب»، ثم ذهب إلى القرية من جديد. لم يعتزل بالمعنى الكامل حينها، إذ رسم بعدها مناظر طبيعية، لكنه مع مرحلة الحطاب ذهب فعلياً إلى مكان آخر» يشرح بركات. وهو ما تؤكده كلمات عبد الحميد بعلبكي لسلوى الحاج في «المنبر» (من كتاب: عبد الحميد بعلبكي 1940-2013، غريغوري بوشاكجيان) عن انتقاله من خيار الخاص إلى العام وقول كلمةٍ فصل: «أثناء الحرب طرأت على أذهاننا تحولات جذرية وعميقة، فالهم الصغير لم يعد يشغلني، صرت أقرب إلى التعبير عن الهم الأكبر، السياسي أو الوجودي. على الصعيد الأدبي، اشتغل كل من بابلو نيرودا وأدونيس على الرمز ذاته: الأول في قصيدته الرائعة «فليستيقظ الحطاب»، والثاني في قوله «أعلن الآن، اختار هذا المكان، كلماتي فؤوس ولصوتي شكل اليدين، أعلن الآن أني «حطاب هذا الزمن»».

«بائع البطيخ» (زيت على كانفاس ــ 89 × 107 سنتم ــ 1981 ــ مجموعة الفضل شلق)

> خياله والواقع وبعض من ترميز، الثلاثية الذهبية في عمله

مسيرة تواكب معاني الإرث

قد يصعب التقاط العطر في اليد، فمن مآثره التطاير كي يحط رحاله في القلب. وهذا المعرض الاستعادي التكريمي، لم يكن سهل الالتقاط في اليد، فهو أتى كله من مجموعات خاصة عديدة، وكان ثمرة مجموعة جهود استثنائية للغاليري، مع عوامل أساسية إضافية يصر عليها بركات: «هناك عامل مهم جداً هو جديّة العائلة ودقة المتابعة، أي دور ورثة الفنان. وهنا تجدر الإشارة إلى إصرار عائلة البعلبكي على تكريم كبيرها. وأنا أيضاً كوني عرفته عن قرب، وعرفت عائلته، كان أيسَر علينا التحضير لهذه التحية، التكريمية. وفعلاً، لقد أحببنا أن نقوم بهذا التكريم/ التحية، لأن بعلبكي يمثل شريحة ومجموعة، وربماً جيلاً قد ظُلم قطعاً. فهو من ذاك الجيل مواليد الأربعينات. عندما كان عمره 25 سنة عائداً من باريس كي ينطلق في حياته هنا، أتت الحرب». ويتابع: «قد يقول بعضهم أنه لم ينجح كفنان أو لأنه غير معروف أو لأنه لم يدخل إلى المتاحف، لكن برأيي وفي النهاية هو ممن دافعوا عن خياراتهم ولم يحيدوا عنها في حياتهم. لم يقرر لحظة أن يستسلم للتجريد، خاصة أنه كان ممكناً أن يكون أسهل بالنسبة لأكاديمي مثله، في ذلك الوقت. طبعاً أنا أحب كثيراً التعبير التجريدي، ولكن بالنسبة لبعلبكي فهو قرر أن يدافع عن قناعاته بالرسم الواقعي حتى النهاية وبالتالي يستحق كل احترامنا والتقدير».

يُقالُ إن نبتة «العِطر» في بيوت القُرى، تُزرعُ حصراً لصيقة بأبواب الدار الخارجية، فيُعرف أن هناك من مرَّ أمامها أو دخل، إذ ينتشر طيبُها بأثر مروره ويركض أصحاب الدار لاستقبال الضيف. لكن «العطر» اليوم زُرِعَ داخل الدار، في قلب «غاليري صالح بركات»، فلنستسلم لجذب شذاه، ونغوص في آلة زمنه، مؤدين التحية والتقدير لكبير... رسمَ وطناً.

عبد الحميد بعلبكي: حتى 30 كانون الأول (ديسمبر) ــ «غاليري صالح بركات» (كليمنصو . بيروت). للاستعلام: 01/365615

«غربة» طائر جريح!

«يا طير يا طاير على طراف الدني لو فيك تحكي للحبايب شو بني.. يا طير...». قد تكون لوحة «غربة» أكبر مصداق لصوت السيدة فيروز تحمّل الأمانة للطير. كانت باريس التي عاش فيها بعلبكي مكاناً عابقاً بالوحدة والشجن. ومع أن بعلبكي، بتأثير من بونارد وفويارد، رسم لوحات حميمة تصور نساء نائمات، إلا أنّ اللوحة الأكثر تعبيراً عن إقامته هناك هي الأكثر غرابة في مجمل أعماله. «غربة» (1972) عبارة عن قماشة مربعة 2x2 متر، تصور مشهداً ثلجياً. في أسفل اللوحة وإلى جهة اليسار، يمشي الفنان وحيداً ومحاطاً بأشجار ميتة علق في اغصانها طائر جريح. ثمة إشارات إلى المدينة تمثلت في وضع عبارة «مولان روج» (اسم الكاباريه الشهير في البيغال الذي احتفى به العديد من الرسامين بمن فيهم تولوز لوتريك)، وفي إدخال ظل برج إيفل في اللوحة. إلى اليمين، يحيط العشب والنبات وأوراق الشجر والزهور بجسد أنثوي عارٍ وبعض الملائكة. وتمثل الملائكة الثلاث الصغيرات بناًت بعلبكي: لُبنى إلى اليسار، جمانة في الوسط وسُميَّة إلى اليمين.

تنتمي «غربة» إلى تراث ما بعد رمزي، وتستدعي حنين الفنان إلى أحبابه وهو يهيم كالغريب في مدينة غنية. («النوستالجيا والرمزية: سنوات باريس» من كتاب «عبدالحميد بعلبكي 1940-2013» ص.15).

«في الواقع هو هنا في اللوحة!» يشير بركات، قبل أن يضيف: «في ذلك البرد القارس، يفكر بزوجته حبيبة قلبه، وبناته سمية وجمانة ولُبنى. ثم هناك هذا العصفور والشوك، وفي المقابل كل هذا الحنان الذي يأتي ليدفئ. هذا المعرض كله من المجموعات الخاصة. بيد أن «غربة» لها قصة فريدة، فهي تمثل ليس فقط بمضامينها البصرية قصة الغربة، بل أيضاً بكيفية إحضارها إلى بيروت. كانت إمكانيات بعلبكي حينها لا تسمح بإحضارها، لذا قسمها إلى جزءين، ثم أعاد دمجها هنا».

تنبع أهمية «غربة» في مسيرة بعلبكي من أنها تؤكد ارتباطه الوثيق بالمضيّ عكس التيار الشكيلي السائد حينها. هنا يتجذر المنحى التصويري والترميزي في آن، في حين كان التجريد هو السائد. يعلّق بركات: «لا يجب أن ننسى أنّ ذلك الوقت شهد صراعاً فنياً قوياً أيضاً على مستوى الحرب الباردة. وكان هناك تشجيع غربي من قبل الـ CIA للفن التجريدي، أو التعبيرية التجريدية. طبعاً كان ذلك ضد المدرسة الواقعية «الاشتراكية» -إذا جاز التعبير - وهذا صراع حقيقي. لذا، كان بعلبكي يعمل غالباً على الناحية التصويرية/figuration في زمن التجريد. وكان إلى ذلك يحاول إدخال عالمه الذي لا أريد أن أسميه «فولكلوريّاً» وإنما الأدق أن نقول «الشعبي» إلى عالمه الواقعي! كان رجلاً فقيراً أتى من رحم هذا الشعب. جلب معه هذه المنمنمات، والثنائية البعدية. وطبعاً هو فنان يبحث عن نمط/style بعيداً عن التجريد».

«غربة» تنطوي أيضاً على كل رموز وهموم الشباب اللبناني الذي تغرّب ليدرس بعيداً عن أهله، فحمّلها بعلبكي تماماً كصوت فيروز، أمانة إيصال شوقه وأنين قلبه!

نيكول...